● **المبحث الثاني: الأقلية في مجال شكر الله على النعم**

الشكر على النعم سمة الفضلاء من خلق الله، أولئك الذين يحسنون بفضل المنعم فيشكرونه على تفضله، ويعبدونه حق عبادته، ولقد أثنى الله على عباده الشاكرين أمثال نوح عليه السلام فقال: ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [الإسراء: ٣]، وبين أن الشكر أحد أوجه العبادة لله تعالى وجعله في مقابل الكفر فقال: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٣] وبين أن الإنعام ابتلاء للإنسان أيشكر أم يكفر؟ فقال على لسان سليمان عليه السلام ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل: ٤٠]. وبين حالة ضعف الإنسان أمام المادة فقال: ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** ﴾ [فصلت: ٥١]، وأمرهم بابتغاء الرزق عنده وربط ذلك بالعبادة والشكر له وحده فقال: ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[العنكبوت: ١٧]، وبين أن النعم التي يغدقها على الإنسانية إنما غرضها الشكر، فقال على لسان سيدنا إبراهيم ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وبين العلاقة بين الشكر وزيادة النعم فقال ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم: ٧].

والحقيقة التي يمكن استنتاجها من كل ذلك هو أن «الكفر ـ هنا ـ مراد به كفر النعمة، وهو مقابلة النعمة بالعصيان، وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك، كما أن شكر النعمة مقابلة النعمة بإظهار العبودية

والطاعة [1]، ولذلك جعل الشكر في مقابل الكفر في قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وهكذا تتجلى لنا قيمة الشكر وحقيقته ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى والآن نشرع في بيان ـ حجم المساحة التي يحتلها البشر في مجال مقابلة المنعم بالشكر الحقيقي المتمثل في العبادة والطاعة والتوحيد الخالص.

ففي سورة الأعراف، وهي سورة مكية تستعرض تاريخ البشرية في صراعها مع الشيطان، نجد آية في مقدمتها تصدر حكما شاملا يبين حقيقة الإنسان في مجال الشكر هي: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠]، إن الله سخر للإنسان كل ما حوله، فمكن له بذلك في الأرض ليعمرها ويعبد خالقه شاكرا على هذا الفضل العظيم، فضل التمكين بما أوتيه من استعدادات لم يعطها كائن حي فوق هذه الأرض، وفضل التسخير للطبيعة بما فيها من نبات وحيوان وجهاد ومعايش لا تعد ولا تحصى، ولكن الظاهر أن الإنسان الذي أودع القدرة على الاختيار للشكر والكفر، لم يوفق في الاختيار بصفة مطلقة كما هو الحال بالنسبة للملائكة، فكانت الأغلبية كافرة بأنعم الله، وكان الشكر حظ الأقلية كما عبرت عنه هذه الآية ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ والآية بهذه الصيغة التي قدمت فيها كلمة «قليلا» على الفعل لأهميتها في بيان حال الإنسان، وللتعبير عن الحقيقة التي بني عليها تاريخ البشرية كما ستقدمه السورة من بعد، لغاية بيان الوقوف أمام الله يوم الحساب، والحرف (ما) بعد كلمة «قليلا» جاء لبيان ضآلة تلك النسبة الشاكرة وتأكيد القلة [2]، فهي حرف يفيد هنا ما يشبه التعجب من تلك القلة التي هي أشبه بالعدم إذا ما قيست بنسبة الأكثرية الكافرة بالنعم كما رأينا في الفصل السابق.

وهذه القلة تتناسب تماما مع حديث الرسول ﷺ الذي بين فيه نسبة أهل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ١٩٤. (٢) تفسير الجلالين ص ٢٠٠.

الجنة، كما سيتبين في موضع آخر، فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول: أخرج بعث النار، فقال: يا رب وما بعث النار؟ فقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال فذلك حين يشيب الوليد وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، قال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - فاشتد ذلك عليهم فقالوا يا رسول الله: أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجلا»[1].

إن الآية السابقة ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ هي من سورة الأعراف التي تستعرض تاريخ البشرية وما آل إليه كثير من الخلق حين لم يشكروا الله على نعمه، تبين أن حالة الإنسانية يغلب عليها هذا التطبع على قلة الالتفات لصاحب الفضل بعد حصول المرغوب والتمكين من الأرض، وبذلك كان حكمها بمثابة إخبار عن حقيقة الإنسان في كل زمان ومكان، ولكن هناك آيات أخرى تعنى بجوانب أخرى يمثل فيها نسبة الشكر القلة أيضا، ومنها شكر الله على نعمة السمع والبصر والعقل، فقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٨] وقال في سورة السجدة: ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [السجدة: ٩] ثم زاد الأمر تفصيلا في سورة الملك فقال: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الملك: ٢٣] والآيات الثلاثة تختم بصيغة واحدة هي ﴿ **قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ وهذه الصيغة تفيد تأكيد قلة الشكر.

ومعنى الآية: «قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره»[2]؛ أي أن الصيغة تأكيد قلة الشكر على

---

(١) القرطبي: مختصر التذكرة القرطبية ص ٧٥ (٢) تفسير الجلالين ص ٤٥٨

النعم المتعلقة بالاستعدادات التي أعطاها الله للإنسان كي يستخدمها في العبادة وعمران الأرض وإصلاح حياته الفردية والاجتماعية، فالشاكرون لله على نعم الاستعدادات قليلون، والشكر على النعمة « يبدأ بمعرفة موجد النعمة، وتمجيده بصفاته ثم عبادته وحده، وهو الواحد الذي تشهد بوحدانيته آثاره في صنعته، ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات في تذوق الحياة والمتاع بها، بحس العابد لله في كل نشاط وكل متاع »[1].

والسبب في كون الشاكرين يمثلون الأقلية يعود إلى « أنهم في جاهليتهم لا يعلمون، وحتى الذين يعلمون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر، وأنى لهم الوفاء ؟ لو لا أن الله يقبل منهم ما يطيقون، هؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله تعالى : ﴿ **قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾.

وإذا كانت نعم الله في منح الإنسان الاستعدادات التي لا حصر لها لتمكنه من تسخير الطبيعة كلها لخدمته فإن من هذه النعم الصناعة، وهي نعمة توفر بسبب الاستعدادات السابقة واستعداد اليد القدرة الصناعية، التي تمكنه من تحويل الأفكار والصور والمسموعات إلى أشكال عمرانية وآلات صناعية، وقد بين الله تعالى موقف الإنسان أمام هذه النعمة بقوله : ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٣] ، المجال هنا مجال الصناعات، وهي نعمة ذات آثار واضحة على الإنسان ، لاسيما في العصر الحديث الذي تمكن فيه الإنسان من تجاوز مستوى الحاجات إلى مستوى التحسينات والكماليات، مما جعل حياته أكثر راحة وتنعما ،مما يستوجب الشكر الذي أمر به هنا عن طريق الأمر الموجه لآل داود ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾، أي اعملوا شكرا لله على هذا التسخير مبتعدين عن التباهي والتعالي بما سخره الله، والعمل الصالح شكر لله كبير[2]،

---

(١) في ظلال القرآن : ١٨ / ٢٤٧٦

(٢) في ظلال القرآن :٢٢ / ٢٨٩٩

ولكن الإنسان هو الإنسان قلما يستيقظ من سباته ويفلت من أهوائه، ويستفيق من غفلته، ويتحرر من قبضة السلطان الذي لا سلطان له عليه، لذا قل الشاكرون من عباد الله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، و صيغة لفظ «الشكور» هنا للدلالة على كثرة الشكر، وهذا أقل من القليل، ولعله لذلك أضاف إلى الصيغة هنا ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ ليدل على أن عباده المضافين إليه إضافة مدح قليل منهم من يؤدي لله حق الشكر على وجهه الصحيح، أي الشكر الكثير الخالص الذي تجسده الأعمال الصالحة المقترنة بالإيمان، ففي العبارة «حث على الاهتمام بالعمل الصالح ويجوز أن يكون هذا التذييل كلاما جديدا جاء في القرآن، أي قلنا لآل داود اعملوا فعمل منهم قليل ولم يعمل كثيرون، وسليمان من أول الفئة القليلة»(١).

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت «كان رسول الله ﷺ إذا هل قام حتى تنفطر رجلاه فقالت له عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال ﷺ: يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا»(٢).

هكذا كان رسول الله ﷺ، وهكذا كان سيدنا سليمان وداوود وسيدنا إبراهيم ونوح عليهم السلام، شاكرين لله على أنعمه، ولكن الناس لم يقتدوا بالأنبياء والرسل في شكر الله بل تهاونوا فما شكر الله حق الشكر منهم إلا قليل من عباده، فحق عليهم قوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فالعبارة «تعقيب تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القصص، يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها، ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣/ ١٩٤

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨٣ الحديث أخرجه مسلم في الصحيح

(٣) في ضلال القرآن الكريم: ٢٢/ ٢٨٩٩

وخلاصة القول:

إن الشكر على النعم يعد عبادة عظيمة لا ينهض بها إلا ذوو الهمم العظيمة والضمائر الحية، وهؤلاء يمثلون نسبة قليلة في حياة البشرية، يأتي على رأس هذه القلة الأنبياء والرسل ثم يليهم عباد الله الصالحين .

على أنه من الواجب التمييز بين مستويين من أساليب الشكر، يترتب عليهما مستويين من الأقليات:

١- أسلوب العبد الشكور الذي يؤدي ما عليه من شكر حتى يبلغ درجة الإحسان، كما رأينا مع قصة قيام الليل عند رسول الله ﷺ، وهذا الأسلوب هو المعبر عنه بقوله ﴿ **الشَّكُورُ** ﴾ أي الكثير الشكر، وهذا أقل من القليل، إنهم خلاصة البشرية.

٢- أسلوب العبد الشاكر الذي يشكر الله بطريقة أقل اجتهادا وهذا هو مستوى معظم عباد الله الصالحين، وهم قليل بالنسبة إلى الأكثرية التي رأينا أنها على ضلال مبين.

* * *